

الفصل الرابع

قضايا أساسية فى دراسة لغة الأدب

١-٤ .

عندما تثار قضية قضية الأسلوب تبرز دائما فى المقدمة مسألة التمييز بين نوعين أساسيين من الأساليب : هما الأسلوب العلمى Scintific Style والأسلوب الأدبى Literary Style . ولسنا بحاجة إلى استقصاء ما ورد فى هذه المسألة من أقوال فى كتب النقد العربية فإن بعضها يدل على سائرهما . ولعل من أجمع ما كتب فى ذلك قول الأستاذ أحمد الشايب فى كتابه الجيد «الأسلوب» بعد أن أورد نصين فى موضوع واحد هو وصف الأهرام ، وعزا أولهما إلى الأسلوب العلمى ، وثانيهما إلى الأسلوب الأدبى .

يقول الأستاذ أحمد الشايب ما نصه (١) :

بالموازنة بين النصين نستطيع أن نفرق بين الأسلوبين العلمى والأدبى فيما يلى :

١- الأول الذى قام عليه الخلاف بين الأسلوبين هو دخول الانفعال أو (ال عاطفة) فى الأسلوب الأدبى بجانب أهم الحقائق والأفكار . وأما العلمى فإن المعارف

(١) سيطول الاقتباس بعض الشيء ، ولذا نشبه على بداية الاقتباس حتى لا تختلط آراء الأستاذ الشايب بآرائنا .

العقلية هي الأساس الأول في بنائه . وقلما نجد للانفعال أثرا واضحا ، لذلك كانت عنايته باستقصاء الأفكار بقدر عناية زميله بقوة الانفعال ، ولسنا نعدو الصواب إذا قلنا : إن الأسلوب العلمى لغة العقل ، والأدبى لغة العاطفة .

٢- ويتبع ذلك أن يكون الغرض من الأسلوب العلمى أداء الحقائق قصد التعليم وخدمة المعرفة وإنارة العقول . ولكن الغاية فى الأسلوب الأدبى هى إثارة الانفعال فى نفوس القراء والسامعين ، وذلك بعرض الحقائق رائعة جميلة كما أدركها أو تصورها الكاتب الأديب ، وبذا يجمع الأسلوب الأدبى بين الافادة والتأثير .

٣- تمتاز العبارة الأولى بالدقة والتحديد والامتقضاء ، ولكن الثانية تعنى بالتفخيم والتعميم والوقوف عند مواطن الجمال والتأثير .

٤- هذه المصطلحات العلمية ، والأرقام الحسابية ، والصفات الهندسية التى هى فى الأسلوب العلمى مظهر العقل المدقق ، يقابلها هذه الصور الخيالية ، والصنعة البديعة ، والكلمات الموسيقية التى هى فى الأسلوب الأدبى مظهر للانفعال العميق .

٥- والعبارة الأولى تمتاز بالسهولة والوضوح ، إذ كانت صادرة عن عقل رزين فاهم ، كما تمتاز الثانية بالجزالة والقوة ما دامت تعبر عن عاطفة قوية حية فكانت كل منهما موسيقا صادقة لمعناها .

٦- ومن ناحية التكرار لا ترى فى الأسلوب العلمى تكرار الفكرة وترديدها ، ولكن الأسلوب الأدبى يأخذ المعنى الواحد ، وعرضه علينا فى عدة صور بيانية مختلفة (٢) .

(٢) هنا ينتهى نص الأستاذ الشايب . وقد أخذناه عن كتاب الأسلوب الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ص ٥٩-٦٠ .

ويتضح من القواعد التي وضعها صاحب الأسلوب للتمييز بين الأسلوبين العلمي والأدبي :

أولاً : أنه يعتمد على تقرير العقل الرزين مصدراً ، وعلى الافادة وخدمة المعرفة غاية الأسلوب العلمي . كما يعتمد على تقرير الانفعال (أو العاطفة) مصدراً ، وعلى الاثارة إلى جانب الافادة غاية للأسلوب الأدبي .

ثانياً : انه يضيف على العبارة في الأسلوب العلمي صفة الدقة والتحديد والاستقصاء والسهولة والوضوح ، على حين يصف العبارة في الأسلوب الأدبي بأنها تعرض الحقائق رائعة جميلة ، وأنها تمتاز بالجزالة والقوة ، والكلمات الموسيقية .

أما نحن فنرى أن جل ما ذكره صاحب كتاب الأسلوب ربما كان صادقاً تمام الصدق من زاوية حساسية القارئ ، المشقف المتمرس تجاه النصوص ، ولكن جميع التصورات والمصطلحات المستخدمة عسيرة جداً على التفتين العلمي ، فكل أولئك مفاهيم نسبية مرنة إلى حد كبير . وأنى لنا أن نميز على وجه الدقة مقدار السهولة أو الوضوح أو الجزالة أو القوة وغير ذلك من المصطلحات ما لم نستند في التحديد إلى معايير موضوعية تتخذ أساساً للحكم^(٣) .

وإذا استطاعت حساسية القارئ المتمرس المشقف أحياناً أن تكون معياراً للتمييز بين نصين : علمي وأدبي - فإن ذلك كثيراً ما يكون لأن بعد الفجوة بين خصائص النصين تكون من الوضوح بحيث لا تجهله الحاسة الخبيرة ، أو - بعبارة أخرى - لأن كلا النصين يحتل أقصى نقطة تتركز فيها الخصائص المميزة على نحو واضح .

(٣) انظر أيضاً مقاييس نقد العاطفة التي ساقها الأستاذ الشاب في كتابه أصول النقد الأدبي

وتعليقنا عليها ف ١ - ٥ من هذا الكتاب .

أما حين تمتاز الحصاص في درجات متفاوتة بين أقصى نقطتين فإن هذه الحصاصية كثيرا ما تخذل صاحبها حين يفزع إليها ، كذلك يكون الأمر حين تحاول تحديد درجة حرارة المريض بوضع راحة اليد على جبهته دون أن تستخدم الآلة المخصصة لذلك وهي الترمومتر الطبي .

وحين لاحظ الباحثون وجود درجات متفاوتة من الأسلوب تتدرج ما بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي المحض ظهرت فكرة تعترف بوجود قسيم ثالث شاعت تسميته بالأسلوب العلمي المتأدب . وكان المعتمد في هذا التصنيف أيضا على الذوق .

وهكذا ما تزال قضية التمييز الموضوعي بين الأسلوب العلمي الخالص والأدبي الخاصة واستنباط المعايير لتمييز الدرجات المتفاوتة بينهما - ما تزال تعد - في رأينا - من المسائل التي تشكل تحديا أمام الدارسين لأساليب العربية .

٤-٢ .

أما مسألة التمييز بين لغة الشعر ولغة النثر فربما كانت أيسر على القارئ والباحث كليهما بادی النظر . وهذا حق إذا قبلنا معيار الشكل وهو الوزن والقافية أساسا للتمييز على حد تعريف قدامة بن جعفر المشهور للشعر بأنه « كلام موزون مقفى دل على معنى »^(٤) . ومن المعلوم أن هذا التعريف لم يكن موضع تسليم من لدن أرسطو حتى الآن عند من يرون أن للشعر بالإضافة إلى الوزن والقافية لغة خاصة يمتاز بها بما ليس بشعر ، وأن بعض النثر قد تتوافر له من خصائص الشعرية ما يجعله يقترب من الشعر درجات وان فاته شكل الشعر ، كما أن بعض الموزون المقفى من

(٤) نقد الشعر . ص ٢ ، لندن ١٩٥٦ . (عن البيان العربى ، طبانة ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٦ ،

ص ١٣٩) . وقد أضاف ابن رشيق شرطاً رابعاً هو النية (انظر العمدة : ١/١١٩) .

الكلام يفتقد من خصائص لغة الشعر ما يبعد به عن الشعر الحق درجات . وهذا الرأي - كما ذكرنا - قديم ينزع بأصوله إلى كتاب الشعر لأرسطو وشروح هذا الكتاب عند فلاسفة المسلمين ، كما ظهر واضحا في كثير من آثار التراث كمقدمة ابن خلدون ، وكتاب «المنهاج» لحازم القرطاجنى^(٥) . وقد دفعت هذه الحقيقة ، معنى وجود خصائص شعرية بدرجات متفاوتة في بعض النثر ، وافتقادها في بعض ما هو موزون مقفى - بعض المنشئين العرب إلى أن يستحدثوا تحت تأثير الآداب الأوربية ما سمي بقصيدة النثر أو الشعر المنثور Poetry in Prose .

وينشأ عن هذه المناقشة أننا إذا نحينا الإطار الشكلي من الوزن والقافية جانبا - وجدنا أنفسنا أمام مشكلة حقيقية حين نريد أن نيز لغة الشعر من لغة النثر . وهذه مسألة أخرى تضاف إلى مسألة التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب (ف ٤-١) . ولاشك أن أفضل حل لهاتين المسألتين لا يتأنى إلا بمحاول تحليل لغة النصوص كما أسلفنا .

٤-٣ .

ومسألة ثالثة يمكن أن يلتبس حلها في تحليل لغة النصوص : تلكم هي تنوع الأساليب بتنوع الاجناس الأدبية . ولعل من أهم الأفكار المستنبذة التي سبق إليها صاحب كتاب «الأسلوب» رحمه الله دعوته إلى اعتبار دراسة الأسلوب بديلا للبلاغة القديمة ، وإلى أن تشتمل هذه الدراسة - فيما تشتمل على دراسة ما تتميز به فنون الأدب المختلفة كالمقالة والمقامة والخطبة والجدل والمناظرة وغيرها . وبالرغم من أن

(٥) بسطنا القول عن ماهية الشعر عند الفلاسفة والنقاد المسلمين في كتابنا عن القرطاجنى الذي أسلفنا إليه الإشارة .

المنظور الذي نعبر عنه في هذا الكتاب يختلف اختلافا كبيرا عما تضمنه كتاب الأسلوب فإن وضع المسألة في ذاتها يبقى صحيحا تماما .

والسؤالان الواردان هنا إذن هما : هل يتميز كل جنس من أجناس الأدب بسمات أسلوبية مميزة ؟ . وهل تتنوع السمات الأسلوبية داخل العمل الأدبي الواحد تبعا لاختلاف المؤثرات التي تكيف البنية اللغوية والفنية للنصوص ؟ .

٤-٤ .

تضعنا الفقرات الثلاث السابقة أمام مشكلات ثلاث تتعلق جميعها بالخصائص الأسلوبية للغة الأدب . ولن يتيسر لنا في هذا الكتاب مناقشة هذا الموضوع من جوانبه المختلفة باستخدام كافة المعايير الموضوعية الممكنة . ومن ثم سنصرف اهتمامنا إلى معيار واحد من بين هذه المعايير هو القياس الكمي الاحصائي .

ومن الطبيعي أن يكون لعلاج « لغة الأدب » منظوران : أحدهما « لغوي » والآخر « أدبي » ، وأن نتوقع من اللغويين والنقاد عملا دائما نشطا في محاولة تشخيصها . ويرى النقد الشكلي كواحد من أهم الاتجاهات النقدية التي أولت عنايتها لتحليل لغة العمل الأدبي ، وهذا ما عبر عنه أوضح تعبير الناقد الانجليزي أيفور أرمسترونج ريتشاردز I. A. Richards بنصه الشهير في كتابه « مبادئ النقد الأدبي » تحت عنوان : « الوظيفة المزدوجة للغة Two Uses of Language . وهذا هو النص :

« قد تستخدم القضية من أجل الإشارة reference التي تحدثها سواء كانت هذه الإشارة صادقة أم كاذبة . وهذا هو الاستعمال « العلمي » للغة . ولكن القضية قد تستخدم أيضا من أجل ما تولده الإشارة التي تحدثها من آثار في الانفعال والموقف . وهذا هو الاستعمال « الاتفعالي » للغة . والتمييز بسيط متى ما فهمناه بوضوح . فقد

تستخدم الألفاظ أما لأجل ما توجد من اشارات وإما لأجل المراقف والانفعالات التي تعقب هذه الألفاظ^(٦).

وتأتى أهمية هذا النص من ظهوره فى عام ١٩٢٤ حين لم تكن الدراسات اللغوية فى أوروبا الغربية وأمريكا - وخاصة مدرسة ل. بلموفيلد Leonard Bloomfield قد أولت جانباً من عنايتها لدراسة القضايا المتعلقة بلغة الأدب عامة ولغة الشعر خاصة مركزة اهتمامها على قضايا علم اللغة الخالص. ولم تؤت مقولة ريتشاردز ثمارها إلا فى بعض ما عولج من قضايا حول الدلالة اللغوية Semantics.

وبالرغم من دعوى ريتشاردز أن التمييز بين الاستعمالين بسيط - لم تمض أفكاره هذه بلا معارضة حتى بين النقاد أنفسهم، وكان من بين معارضيه الناقد ج. ك. رانسوم J. C. Ransom والناقدة ايزابيل هانجر لاند I. Hungerland^(٧). وقد أدى الجدل النقدي حول التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب إلى تزايد اهتمام اللغويين بها وحفزهم على انضاج مفاهيمهم وتصوراتهم المنهجية وتحسين وسائل الدراسة. وبذلت محاولة هامة للانتقال من دراسة قواعد تركيب الجملة Sentence Grammar إلى قواعد تركيب النص (أو الخطاب) Text (or discourse) Grammar.

(٦) أ. أ. ريتشاردز، «مبادئ نقد الأدب» ترجمة محمد مصطفى بدوى القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٣٩.

(8) Brain Lee, "The New Criticism and the Language of poetry" in Essays on Style and Language, pp 34 - 37.

انظر :

T.A. Van Dijk, "Some Aspects of Text - Grammars A study in Theoretical Linguistics and Poetics", Hague, Mouton, 1972.

وهكذا أصبحت قضايا لغة الأدب في مركز الاهتمام بالنسبة للغويين .
ونشطت الدراسات في اللسانيات الأسلوبية Linguistic Stylistics وتحليل لغة
النصوص ، وتعددت الاتجاهات تبعا لتعدد الأسس النظرية والفلسفية بين المدارس
اللغوية . وكان من بين الجوانب التي أخذت نصيبا طيبا من الاهتمام الأسلوبيات
الاحصائية Statistic Stylistics الذي يقع في إطارها ما نتناوله في هذا الكتاب من
قضايا .